

الباب الرابع

منهج تفسير ابن عربي وابن عجيبة ومقارنة بين تفسيرهما في سورة آل عمران الآية ١٩١ في الذكر والتفكر

أ. منهج ابن عربي في تفسير القرآن الكريم

كما قال محمد حسين الذهبي أن ابن عربي الشيخ في الطريقة تفسير الصوفي النظري, إذ أنه أظهر من حُبِّ فيها ووضع, وأكثر أصحابه معالجة للقرآن على طريقة التصوف النظري, وإن كان له من التفسير الإشاري ما يجعله في عداد المفسرين الإشاريين إن لم يكن شيخهم أيضاً. ويعد كتابه كالفتوحات المكية والفصوص من كتاب التفسير, لأنه يطبق ابن عربي كثيرا من الآيات القرآن بنظرياته الصوفية الفلسفية.^١

يقوم مذهب ابن عربي في التفسير غالباً على نظرية وحدة الوجود التي يدين بها, وعلى الفيوضات والوجدانيات التي تنهل عليه من سحائب الغيب الإلهي, وتنقذ في قلبه من ناحية الإشراق الرباني.

أما من الناحية الأولى: ناحية التأثير بمذهب وحدة الوجود. فإننا نراه في كثير من الأحيان يتعسف في التأويل, ليجعل الآية تتمشى مع هذه النظرية. وهذا فيما أعتقد منهج كله شر في التفسير, فهو يبدل فيما أراد الله من آياته, ويقسرها على أن تتضمن مذهبه, وتكون أسانيد له, وهذا ليس من شأن المفسر المنصف, الذي يبحث في القرآن بحثاً مجرداً عن الهوى والعقيدة.

^١ محمد حسين الذهبي, التفسير والمفسرون, المجلد الثاني, ٨٣.

وأما من الناحية الثانية: ناحية الفيض الإلهي، فهو واسع الباع فيها، وقد مرّت بك مقالته في التفسير الإشاري، ورأيت كيف ادّعى أن كل ما يجري على لسان أهل الحقيقة من المعاني الإشارية في القرآن هو في الحقيقة تفسير وشرح لمراد الله، وإنما عبّر عنها بالإشارة. تقيّة من أهل الظاهر، ورأيت كيف ادّعى أن أهل الله وهم الصوفية أحق الناس بشرح كتابه، لأنهم يتلقون علومهم عن الله، فهم يقولون في القرآن على بصيرة، أما أهل الظاهر فيقولون بالظن والتخمين.

ثم هو لا يرى فرقاً بين القرآن نفسه، وبين تفسير أهل الله له، من ناحية أن كلا منهما حق ثابت، وصدق لا يعتريه شك، فإذا كان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه من عند الله، فكذلك أقوال أهل الحقيقة في التفسير، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها منزّلة على قلوبهم من عند الله.^٢

وابن عربي لم نظفر له بكتاب في التفسير، ولكن نجد صاحب كشف الظنون يقول: إنه "صنّف تفسيراً كبيراً على طريقة أهل التصوف في مجلدات. قيل إنه في ستين سَفْراً، وهو إلى سورة الكهف، وله تفسير صغير في ثمانية أسفار على طريقة المفسّرين"، وإذا كنا لم نظفر بهذين الكتابين، فإننا قد ظفرنا بما فيه بعض الكفاية عنهما، وهو تفسيره لبعض الآيات التي وجدناها متفرقة في غضون مؤلفاته، كالفصوص، والفتوحات. إليك بعضاً منها لتكون على بصيرة، ولتطمئن إلى حكمي على الرجل في شرحه لكتاب الله تعالى.^٣

^٢ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، المجلد الثاني، ١٣٤-١٣٥.

^٣ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، المجلد الثاني، ١٣٥.

واختصر السيد عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الفتوحات المكية وسمي ذلك المختصر: "الواحد الأنوار القدسية المنتقاة ممن الفتوحات المكية"، ثم اختصر هذا المختصر وسماه: "الكبريت الأحمر من علوم الشيخ الكبير". وذكر فيها ما نصه: وقد توقفت حال الاختصار في مواضع كثيرة منه لم يظهر لي موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة، فحذفتها من هذا المختصر، وربما سهوت فتبعت ما في الكتاب كما وقع للبيضاوي مع الزمخشري، ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التي حذفت ثابتة عن الشيخ محي الدين حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد بن السيد أبي طيب المدني، فذاكرته في ذلك فأخرج إلي نسخة من الفتوحات التي قابلها على النسخة التي عليها خط الشيخ محي الدين نفسه بقونية، فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة التي دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة، كما وقع له ذلك في كتاب الفصوص وغيره.^٤

١. نماذج من التفسير الصوفي النظري له

في سورة النساء عند قوله تعالى في الآية ٨ : مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، يقول: لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطق إلا بالله، بل لا ينطق إلا الله منه فإنه صورته.

٢. نماذج من التفسير الإشاري له

في سورة الحج عند قوله تعالى في الآيتين ٣٢-٣٣ : وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، فيقول: شَعَائِرُ اللَّهِ أي أعلامه،

^٤ ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد الثامن، ٤٨٤.

وأعلامه الدلالة الموصلة إليه، ويقول: ثُمَّ مَجِّهًا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَهُوَ بَيْتُ الْإِيمَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْإِشَارَاتِ، وليس إلا قلب المؤمن الذي وسع عظمة الله وجلاله.

٣. نماذج من التفسير الظاهر لابن عربي

في سورة الأنعام عند قوله تعالى في الآية ١٥٣: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، يقول: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَأَضَافَهُ إِلَيْهِ، ولم يقل: صراط الله، ووصفه بالاستقامة، ثم قال: فاتبعوه الضمير يعود على صراطه، وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ يعنى شرائع من تقدّمه ومناهجهم من حيث ما هي شرائع لهم، إلا إن وجد حكم فيها في شرعى فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعاً لهم، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ يعنى تلك الشرائع، عَن سَبِيلِهِ أى عن طريقه الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقل عن سبيله الله، لأن الكل سبيل الله، إذ كان الله غايتها، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أى تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينكم وبين المشى على غيره.^٥

ب. منهج ابن عجيبة فى التفسير

سار ابن عجيبة فى تفسيره على منهج واضح المعالم، فهو يبدأ فى تفسير السورة ببيان مكان نزولها، وعدد آياتها، ويذكر الاختلاف فى عدد الآيات إن وجد مع ذكر مناسبة السورة لما قبلها وسبب نزولها إن وجد وفضائلها ومضمونها الإجمالى، ثم يشرع فى تفسير الآيات فيبدأ بالشرح اللغوي للكلمات

^٥ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، المجلد الثاني، ١٣٥-١٣٧.

الغريبة ذاكرا الإعراب، ثم يبين المعنى المراد معتمدا في ذلك على القرآن والأحاديث والآثار وأقوال المفسرين المتقدمين. وهذه أهم معالم منهج الإمام ابن عجيبة في تفسيره بإيجاز:

١. تفسير القرآن بالقرآن:

ومن ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ إِخْبَارًا، فينقل الشيخ أن الكلمات التي تلقاها آدم هي قوله تعالى: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

٢. القراءات:

اهتم الشيخ ابن عجيبة بذكر القراءات المختلفة في الآية، مسجلا المعنى المترتب على ذلك، وهو في أغلب ذلك ينسب القراءة لصاحبها وأحيانا يغفل ذلك، فيهم ويقول: وقرأ بكذا، كما أنه يذكر أحيانا بعض القراءات الشاذة.

٣. أسباب النزول:

من الواضح في تفسير ابن عجيبة استناده إلى أسباب النزول، ليستعين بها على فهم الآيات. انظر ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وكذلك قوله تعالى: وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، والأمثلة كثيرة جدا مما يجعل هذا التفسير من أمهات المراجع في علم أسباب النزول.^٦

٤. السنة والآثار:

^٦ ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٣٣.

اعتماد ابن عجيبة على السنة الشريفة في تفسيره للقرآن الكريم سمة واضحة، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا، يستشهد الشيخ على أن إسماعيل عد من آباء يعقوب مع أنه عمه، بقوله صلى الله عليه وسلم: «عَمُّ الرَّجُلِ صِنُّ أَبِيهِ» ، وقال في العباس: هذا بقية آبائي. كذلك جاء تفسير ابن عجيبة حافلا بنقل الأجلء من الصحابة والتابعين - رضى الله عنهم، وحين تتعدد الروايات عن الصحابة فى تفسير كلمة أو آية، فإنه يذكرها، ولا يرجح بعضها على بعض، أو يقدح فى شىء منها، وذلك إشارة منه إلى أن معنى الآية يحتمل جميع المعاني. والمتتبع لما أورده المفسر فى تفسيره من أحاديث وآثار يتبين:

- (١) أن المفسر لا يلتزم غالبا بتخريج الأحاديث ونسبتها إلى مصادرها.
- (٢) من الأحاديث ما أدرجه فى سياق الكلام دون أن ينبه إلى أنه من السنة.
- (٣) يكتفى أحيانا بالقول: وقد ثبت فى الصحيح ويأتى بمعنى الحديث.
- (٤) يذكر أحيانا بعض الإسرائيليات، مثل ما ذكره عند تفسير قصة هاروت وماروت. وقد نقل الشيخ هذه الأخبار تأسيا بمن نقلها من المفسرين السابقين، وهو مقل منها بالنسبة لغيره، وما يذكره من ذلك يصدره غالبا بلفظ روى أو قيل مما يشعر بضعف الرواية، وبعدها عن الصحة، وحبذا خلّو تفسيره من هذه الأخبار.^٧

٥. اللغة والنحو: يلاحظ فى البحر المديد:

^٧ ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٣٤.

(١) عناية المفسر بالإعراب، وإذا كانت الآية تحتل أوجها من الإعراب، فإنه يذكرها، ويذكر المعنى على اختلاف الأعراب.

(٢) كثيرا ما يتوسع المفسر في الكلام على مسألة نحوية يوضح ويبين، ومن ذلك كلامه الذي عقده لبيان الفرق بين بلى و نعم عند تفسير قوله تعالى: بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً .

(٣) عنايته ببيان معنى المفردات القرآنية.

(٤) الاستشهاد بالشعر: اعتمد ابن عجيبة كثيرا على الشعر في بيان المعاني اللغوية، مثل ما جاء عند تفسير قوله تعالى: وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، يقول الشيخ: والأسباب العهود والوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا، يتوَادُونَ عليها، وأصل السبب: كل شيء يتوصل به إلى شيء، ومنه قيل للحبل الذي يُصعد به: سبب، وللطريق: سبب، قال الشاعر:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيَّةِ يَلْقَهَا ... وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ

ويلاحظ في البحر المديد أن الشيخ يذكر النص الشعري مجردا من اسم قائله، باستثناء بعض الأبيات.

٦. الفقه:

نلاحظ أن الشيخ يتعرض للأحكام الفقهية، إذا مر في تفسيره بآيات الأحكام، وهو في ذلك لا يكتفى غالبا بذكر رأى مذهبه المالكي، بل يقدم رأيا يخالف مذهبه، بناء على قوة الأدلة والحجج.

أحيانا يكتفى برأى الإمام مالك، ولا يذكر رأى المذاهب الأخرى.^٨

^٨ ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٣٥.

٧. الإشارات في البحر المديد:

أفصح الشيخ عن مراده من تفسيره حين قال: مرادنا تربية اليقين بكلام رب العالمين. وقد بسط المفسر الحديث في إشارات من آداب السلوك والأخلاق والمقامات والثمرات, وقدّم لنا من خلال ذلك منهجاً تربوياً صوفياً إسلامياً متكاملًا، يسلكه من أراد أن تصفو روحه وتزكو نفسه ويحيا قلبه بنور معرفة الحق تعالى.

ويلاحظ أن الشيخ ابن عجيبة لا ينظر إلى الخطابات الواردة في القرآن على أنها موجهة إلى أقوام مخصوصين فحسب، وإنما يرى مع ذلك أن الخطاب بهذه الآيات مازال قائماً يوجه إلى الإنسان في كلِّ عصر وأوان، يقول الشيخ رضى الله عنه: إذا توجَّه الخطاب إلى طائفة مخصوصة، حمله أهل الفهم عن الله على عمومته، فإن الملك إذا عاتب قوماً بمحضر آخرين كان المراد بذلك تحذير لكل سامع.

والشيخ ابن عجيبة باعتباره صوفياً يدعو إلى مقام الإحسان، فإن له قاعدة في إشارته، يقول الشيخ عنها: اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان، وأنكر على أهله، يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان، وأنكر على أهله.^٩

بعض الأمثلة من إشارات الشيخ قوله تعالى: قُلْ أَتَحَابُّونَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ, يقول الشيخ في إشارة الآية: كل من أقامه الحق في وجهه، ووجهه إليها، فهو عامل لله فيها، قائم بمراد الله منها، وما اختلفت الأعمال إلا من جهة المقاصد، وما تفاوت

^٩ ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٣٧.

الناس إلا من جهة الإخلاص، فالخلق كلهم عبيد للملك المجيد، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الإخلاص، فمن كان أكثر إخلاصاً لله كان أولى من غيره بالله، وبقدر ما يقع للعبد من الصفاء يكون له من الاصطفاء، فالصوفية والعلماء والعباد والزهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم، كلهم عاملون لله، ليس أحد منهم بأولى من غيره بالله، إلا من جهة الإخلاص وإفراد القلب لله. فمن ادعى الاختصاص بالله من غير هذه الوجهة فهو كاذب، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور، يقال له: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

وقد جاءت إشارات الإمام ابن عجيبة جامعة لدرر من المنظوم والمنثور، فقد ضمنها الشيخ أقوال مجموعة كبيرة من كبار الصوفية، كأبي يزيد البسطامي والجنيد والقشيري والشاذلي وأبي العباس المرسى وابن عطاء السكندري وزروق والدرقاوى والبوزيدى وغيرهم، كما أنه ذكر كثيرا من أشعارهم، كشعر ابن الفارض والجيلي والششتري، ونقل حكما كثيرة من حكم ابن عطاء السكندري وغيره، كما نقل في مواضع عديدة عن لطائف الإشارات للقشيري وعرائس البيان للشيرازي وإحياء علوم الدين للغزالي وغيث المواهب العلية لابن عباد وبالتالي فقد حفل هذا التفسير بتراث جم من الفكر الصوفي.^{١٠}

ج. تفسير سورة آل عمران آية ١٩١ عند ابن عربي

^{١٠} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٣٨.

وأما في تفسير قوله تعالى: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، فيبين ابن عربي هذه الآية في باب معرفة حال قطب كان منزله قوله جل ثنائه وتقدست أسمائه: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، ويقول: ^{١١}

الذاكرون بكل حال ربهم . . . هم أهل كل فضيلة في العالم

لا يشهدون سواه في أعيانهم . . . فهم الملوك على الوجود الدائم

قاموا بحق الله لا بحقوقهم . . . في راقد أو قاعد أو قائم

حازوا الكمال فلم يكن لسواهم . . . هذا المقام من الإله الحاكم

لهم التفكير في تعلق وصفه . . . بوجودهم ووجود كل العالم

فهذا ذكر الأحوال لا يقف عند ذكر خاص وإنما هو بحسب الحال، ومن حاز هذه الأحوال الثلاثة فقد حاز الوجود، فالآية التي تعم جميع الأحوال في الذكر قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) هذا هو ذكر العام الذي يعم جميع الأحوال، وبقي ذكر التخصيص فذكر القائم: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وذكر القائم (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) وذكر الجنب (وَفِي الْأَرْضِ آلِهَةٌ) وهذا كله فيه أعني في تأويله بين العلماء، أجمع همك على أمر واحد حتى يزول عنك التبديد، فإن شئت راقبت (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فإن شئت راقبت (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) وكونه في السماء يقول: هل من تائب؟ هل من مستغفر؟ هل من داع؟ وإن شئت راقبت (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ) وإن كان طعامك ثريدا فراقب (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) وكيونتنا تعم حسا، ومعنى فبالحس حيث نحن من

^{١١} ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد السابع، ٣٢٧.

الأرض وحيث نحن فيه من الشغل بالجوارح, ومعنى حيث كنا بالهمم والمقاصد والخواطر فنشهده في الشغل فاعلا وفي القصد قاصدا أيضا فنعكس الأمر فنكون بحيث هو فإننا بحيث ما نحن عليه وليس إلا هو:

فكن في أحسن الهيئات تسعد . . . وكن في أكمل الحالات ترشد

وكن بالحال لا بالقول فيه . . . تكن في حكم من يقضي فيقصد

وهذا القدر من الإيماء نصحة إلهية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد, والله يقول

الحق وهو يهدي السبيل.^{١٢}

وأما في تفسير قوله تعالى: وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ, فيبين ابن عربي هذه الآية في باب معرفة مقام الفكر وأسراره, ويقول:^{١٣}

إن التفكير في الآيات والعبر . . . ليس التفكير في الأحكام والقدر

إن التفكير حال لست أجهله . . . فالله قرره في الآي والسور

لولا التفكير كان الناس في دعة . . . وفي نعيم مع الأرواح في سرر

الفكر نعت طبيعي وليس له . . . حكم على أحد يدري سوى البشر

ولو يكون الذي قلناه ما نظرت . . . بالغا عيني إلى الأحوال والصور

^{١٢} ابن عربي, الفتوحات المكية, المجلد السابع, ٣٢٨.

^{١٣} ابن عربي, الفتوحات المكية, المجلد الثالث, ٤١٥.

به المؤثر والأسماء قائمة . . . تنفذ الأمر في بدو وفي حضر

اعلم وفقك الله أن الفكر ليس بنعت إلهي إلا إذا كان بمعنى التدبير والتردد في الأولى فحينئذ يكون نعتا إلهيا، وأما الفكر بمعنى الإعتبار فهو نعت طبيعي، ولا يكون في أحد من المخلوقين سوى هذا الصنف البشري وهو لأهل العبر الناظرين في الموجودات من حيث ما هي دلالات لا من حيث أعيانها ولا من حيث ما تعطى حقائقها، قال تعالى: (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) فإذا تفكروا أفادهم ذلك التفكير لم يكن عندهم فقالوا: (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار) فما عدلوا إلى الإستجارة به من عذاب النار إلا وقد أعطاهم الفكر في خلق السموات والأرض علما أشهدهم النار ذلك العلم فطلبوا من الله أن يحول بينهم وبين عذاب النار، وهكذا فائدة كل مفكر فيه إذا أعطى للمفكر علما ما يسأل الله منه بحسب ما يعطيه.^{١٤}

فمقام الفكر لا يعتدي النظر في الإله من كونه إلهيا، وفيما ينبغي أن يستحقه من له صفة الألوهية من التعظيم والإجلال والإفتقار إليه بالذات، وهذا كله يوجد حكمه قبل وجود الشرائع، ثم جاء الشرع به مخبرا وأمرا فأمر به وإن أعطته فطرة لبشر ليكون عبادة يؤجر عليها، فإنه إذا كان عملا مشروعاً للعبد أثمر له ما لا يثمر له إذا اتصف به لا من حيث ما هو مشروع، وليس للفكر حكم ولا مجال في ذات الحق لا عقلا ولا شرعا، فإن الشرع قد منع من التفكير في ذات الله، وإلى ذلك الإشارة بقوله (ويحذركم الله نفسه) أي لا تتفكرو فيها، وسبب ذلك ارتفاع المناسبة بين ذات الحق وذات الخلق،

^{١٤} ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد الثالث، ٤١٥.

وأهل الله لما علموا مرتبة الفكر وأنه غاية علماء الرسوم وأهل الإعتبار من الصالحين وأنه يعطي المناسبات بين الأشياء تركوه لأهله وأنفو منه أن يكون حالاً لهم.

والفكر حال لا يعطي العصمة ولهذا مقامه خطر, لأن صاحبه لا يدري هل يصيب أو يخطئ لأنه قابل للإصابة والخطأ, فإذا أراد صاحبه أن يفوز بالصواب فيه غالباً في العلم بالله فليبحث عن كل آية نزلت في القرآن فيها ذكر التفكير والإعتبار, ولا يتعدى ما جاء من ذلك في غير كتاب ولا سنة متواترة, فإن الله ما ذكر في القرآن أمراً يتفكر فيه ونص على إيجاد عبرة أو قرن معه التفكير إلا للإصابة معه والحفظ وحصول المقصود منه الذي أراده الله لا بد من ذلك, لأن الحق ما نصبه وخصه في هذا الموضوع دون غيره إلا وقد مكن العبد من الوصول إلى علم ما قصد به هناك فقد ألقيت بك على الطريق وهكذا وجده أهل الله.^{١٥}

فإن تعديت آيات التفكير إلى آية العقل أو آيات السمع أو آيات العلم أو آيات الإيمان واستعملت فيها الفكر لم تصب جملة واحدة فالتزم الآيات التي نصبها الحق (لقوم يتفكرون) ولا تتعدى بالأمر مراتبها, ولا تعدل بالآيات إلى غير منازلها وإذا سلكت على ما قلته لك حمدت مسعك وشكرتني على ذلك, فابحث على كل آية عبرة وتفكر تسعد إن شاء الله تعالى.

وكذلك الآيات التي فيها النظر من هذا الباب الفكري مثل قوله تعالى (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) ومثل قوله (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وكذلك: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

^{١٥} ابن عربي, الفتوحات المكية, المجلد الثالث, ٤١٦.

بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) وقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ). وكذلك آيات التدبر من هذا الباب مثل قوله (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ) واجعل بالك إذا ذكر الله شيئاً من ذلك بأي اسم ذكره، فلا تتعدى التفكير فيه من حيث ذلك الاسم إن أردت الإصابة للمعنى المقصود لله مثل قوله (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ) فانظر فيه من حيث ما هو قرآن لا من حيث ما هو كلام الله، ولا من حيث ما هو فرقان، ولا من حيث ما هو ذكر من قوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) فكل اسم له حكم وما عينه الحق في الذكر إلا حتى يفهمه عباده ويعلمهم كيف ينزلون الأشياء منازلها، فتلك الحكمة وصاحبها الحكيم، وقد مدح الله من شرفه بالحكمة فقال: (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) وقال: (وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ) وقال: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) فإن حكمها يسري في جميع الأشياء وهو أن الحكيم لا يتعدى بالشيء قدره ولا منزلته.^{١٦}

د. تفسير سورة آل عمران آية ١٩١ عند ابن عجيبة

ثم وصف أولى الألباب الذين يدركون صفاء هذه المعاني، فقال:

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) يقول الحق جلّ جلاله، في وصف أولى الألباب: هم الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، أي: يذكرونه على الدوام، قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «من أراد أن يترع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله» .

^{١٦} ابن عربي، الفتوحات المكية، المجلد الثالث، ٤١٦.

وقيل: يُصَلُّونَ عَلَى الْهَيْئَاتِ الثَّلَاثِ، حَسَبِ الطَّاقَةِ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ، وَكَانَ مَرِيضًا: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِكَ وَتَوَمَّىءَ إِيمَاءً» .

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اسْتِدْلَالًا وَاعْتِبَارًا، وَهُوَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا عِبَادَةَ كَالْتَفَكْرِ" لِأَنَّهُ الْمَخْصُوصُ بِالْقَلْبِ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْخَلْقِ، وَعَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ مُسْتَلْقٍ عَلَى فِرَاشِهِ فَتَنَظَّرَ إِلَى السَّمَاءِ وَالنُّجُومِ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ لَكَ خَالِقًا، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، فَتَنَظَّرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فَغَفَرَ لَهُ". وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى شَرَفِ عِلْمِ الْأَصُولِ وَفَضْلِ أَهْلِهِ. قَالَ الْبِيضَاوِيُّ.

وسياتي مزيد من كلام على التفكر في الإشارة إن شاء الله. ١٧

فلما تفكروا في عجائب المصنوعات، قالوا: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا أَى: عِبثًا مِنْ غَيْرِ حِكْمَةٍ، بَلْ خَلَقْتَهُ لِحِكْمَةٍ بَدِيعَةٍ، مِنْ جَمَلَتِهَا: أَنْ يَكُونَ مَبْدَأُ لَوْجُودِ الْإِنْسَانِ، وَسَبَبًا لِمَعَاشِهِ، وَدَلِيلًا يَدُلُّهُ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَيُحِثُّهُ عَلَى طَاعَتِكَ، لِيَنَالَ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ، وَالسَّعَادَةَ السَّرْمَدِيَّةَ فِي جَوَارِكَ، سُبْحَانَكَ تَنْزِيهًا لَكَ مِنَ الْعَبَثِ وَخَلْقِ الْبَاطِلِ، فَقِينَا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي اسْتَحَقَّهَا مِنْ أَعْرَضَ عَنِ النَّظَرِ وَالْإِعْتِبَارِ، وَأَخْلَّ بِمَا يِقْتَضِيهِ مِنْ أَحْكَامِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

الإشارة: قَدَّمَ الْحَقَّ الذِّكْرَ عَلَى الْفِكْرِ عَلَى تَرْتِيبِ السَّيْرِ، فَإِنَّ الْمَرِيدَ يُؤَمِّرُ أَوَّلَ أَمْرِهِ بِذِكْرِ اللِّسَانِ، حَتَّى يَفْضِي إِلَى الْجَنَانِ، فَيَنْتَقِلُ الذِّكْرَ إِلَى الْقَلْبِ، ثُمَّ إِلَى الرُّوحِ، وَهُوَ الْفِكْرُ، ثُمَّ إِلَى السَّرِّ، وَهُوَ الشَّهُودُ وَالْعِيَانُ، وَهَذَا يَخْرُسُ اللِّسَانُ، وَيَغِيبُ الْإِنْسَانُ فِي أَنْوَارِ الْعِيَانِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ:

مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إِلَّا هَمَّ يَلْعَنُنِي ... سِرِّي وَرُوحِي وَقَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِكَ

^{١٧} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٤٥٠.

حَتَّى كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ يَهْتَفُ بِي ... إِيَّاكَ وَيُحَكِّ وَالتَّدْكَارَ! إِيَّاكَ!

أَمَّا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لَاحَتْ شَوَاهِدُهُ ... وَوَأَصَلَ الْكُلَّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْنَاكَ

فإذا بلغ العبد هذا المقام الذي هو مقام الأفراد اتحدت عنده الأوراد، وصار ورداً واحداً، وهو عكوف

القلب في الحضرة بين فكرة ونظرة، أو إفراد القلب بالله، وتغيبه عما سواه.^{١٨}

قال في الإحياء في كتاب الأوراد: الموحد المستغرق الهم بالواحد الصمد، الذي أصبح وهمومه

هم واحد، فلا يحب إلا الله، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوقع الرزق من غيره، ولا ينظر في شيء إلا يرى

الله فيه، فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة، لم يفتقر إلى ترتيب الأوراد واختلافها، بل ورده بعد

المكتوبات ورد واحد، وهو حضور القلب مع الله في كل حال، فلا يخطر بقلبه أمر، ولا يقرع سمعه

قارع، ولا يلوح لنظره لائح، إلا كان له فيه عبرة وفكرة ومزيد، فلا محرك ولا مسكن إلا الله. فهؤلاء جميع

أحوالهم تصلح أن تكون سبباً لازديادهم، فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة، وهم الذين فرّوا إلى الله كما

قال تعالى: فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ، وتحقق فيهم قوله: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي، وهذه الدرجة منتهى درجة الصديقين،

ولا ينبغي أن يغتر المرید بما يسمعه من ذلك، فيدعيه لنفسه، ويفتر عن وظائف عباداته، فذلك علامته

ألا يحس في قلبه وسواساً، ولا يخطر بقلبه معصية، لا يزعجه هواجم الأحوال، ولا يستفزه عظام

الأشغال، وأنى تكون هذه المرتبة. قلت: قوله: "لا يخطر بقلبه معصية" غير لازم لأن قلب العارف مرسى

للتجليات النورانية والظلمانية، لكنها تقل ولا تسكن.

^{١٨} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٤٥١.

وقال في موضع آخر: وأما عبادة ذوي الألباب فلا تتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حُبًّا لجلاله وجماله، وسائر الأعمال تكون مؤكّدة. قال: والعامل لأجر الجنة درجته درجة البُله، وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البُله.

وقال في كتاب كيمياء السعادة: وقد غلط من ظن أن وظائف الضعفاء كوظائف الأقوياء، حتى قال بعض مشايخ الصوفية: من رأني في الابتداء، قال: صار صديقاً، ومن رأني في الانتهاء، قال: صار زنديقاً، يعني أن الابتداء يقتضي المجاهدة الظاهرة للأعين بكثرة العبادات، وفي الانتهاء يرجع العمل إلى الباطن، فيبقى القلب على الدوام في عين الشهود والحضور، وتفتت زواهر الأعضاء، فيظن أن ذلك تهاون بالعبادة، وهيئات هيئات، فذلك استغراق لمخ العبادات ولبابها وغايتها، ولكن أعين الخفافيش تكل عن درك نور الشمس.^{١٩}

قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن العارف بعد نقل كلام القشيري في هذا المعنى: وما أشار إليه ظاهر في أن أهل القلوب لا يتعاطون كل طاعة. وإنما يتعاطون من الطاعات ما يجمعهم ولا يفرقهم. ولذلك قال الجنيد: أحب للصوفي ألا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهم، قال: وأحب للمريد ألا يشتغل بالتكسب وطلب الحديث لئلا يتغير حاله. قلت: ومن رزقه الله شيخ التربية فما عيَّنه له فهو عين ذكره، يسير به كيفما كان. هذا ما يتعلق بحال الذكر الذي قدّمه الله تعالى، وأما التفكير فهو أعظم العبادات وأفضل القربات، هو عبادة العارفين ومنتهى المقربين. وفي الخبر: "تفكّر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة".

^{١٩} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٤٥٢.

وقال الجنيد رضي الله عنه: أشرف المجالس وأعلاها: الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر لحسن الظن بالله تعالى. ثم قال: يا لها من مجالس، ما أجلها، ومن شرابٍ ما أذاه، طوبى لمن رزقه. وقال القشيري رضي الله عنه: التفكر نعت كل طالب، وثمرته: الوصول بشرط العلم، فإذا سلم الفكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق.

وسئلت زوجة أبي ذر عن عبادة زوجها، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية يتفكر. وكذلك زوجة أبي بكر قالت: كان ليله أجمع في ناحية يتفكر. وكذا زوجة أبي الدرداء، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول: طوبى لمن كان قلبه ذكراً وصمته تفكراً، ونظره عبدة. وقال الحسن رضي الله عنه: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو.^{٢٠} وقال في الحكم: (ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة). وقال أيضاً: (الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له). وقال أيضاً: (الفكرة فكرتان فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان، فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار). وفكرة الشهود والعيان هي عبادة العارفين، ولا يُحصَر ثوابها في ستين ولا في سبعين، بل وقت منها يعدل ألف سنة، كما قال الشاعر:

كَلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي ... قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّةٍ

فأوقات هؤلاء كلها ليلة القدر، ومن لم يبلغ هذا المقام فليبك على نفسه على الدوام، ومن ظفر بها ونالها حق له الهناء، وفي أمثاله قال القائل:

^{٢٠} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٤٥٢.

هُم الرِّجَالُ وَعَبْنُ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ ... لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي وَصَفِيهِمْ رَجُلٌ

حققنا الله بمقامهم، وسقانا من منالهم، آمين.

وقوله: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا بَلْ هُوَ ثَابِتٌ بِإِثْبَاتِكَ، مَمْحُورٌ بِأَحَدِيَةِ ذَاتِكَ، فالباطل محال،

وكل ما سواه باطل، كما قرره الرسول - عليه الصلاة والسلام.^{٢١}

هـ. الفرق والتسوية بين تفسيري ابن عجيبة وابن عربي

إذا نظرنا إلى التفسير ابن عربي في الفتوحات المكية وتفسير ابن عجيبة في البحر المديد في سورة آل عمران الآية ١٩١ علمنا أن تفسيريهما من التفسير الصوفي الإشاري، لأنهما فسرا الآية بالمعاني الباطنة واعترفوا بظاهر القرآن، لا بالباطن فقط، وأنهما من علماء الصوفي العملي، ومن الصالحين وأهل العبادة والشيخ الكبير في زمانهما. ثم الفرق بين تفسيري ابن عربي وابن عجيبة في هذه الآية وهو كما يلي:

وأما ابن عجيبة فيفسر قوله تعالى: "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ" على حالتين الصلاة والذكر الدوام، وهذا يوافق الطبري والقرطبي حيث قال الطبري في تفسيره: ومعنى هذه الآية: إنَّ

^{٢١} ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المجلد الأول، ٤٥٣.

في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذاكرين الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم يعني بذلك: قيامًا في صلاتهم، وقعودًا في تشهدهم وفي غير صلاتهم، وعلى جنوبهم نيامًا. كما:

١. حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج، عن ابن جريج، قوله: "الذين يذكرون

الله قيامًا وقعودًا" الآية، قال: هو ذكر الله في الصلاة وفي غير الصلاة، وقراءة القرآن.

٢. حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: "الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا

وعلى جنوبهم"، وهذه حالاتك كلها يا ابن آدم، فاذكره وأنت على جنبك، يُسرًا من الله

وتخفيًا. ٢٢

وقال القرطبي في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) ذَكَرَ تَعَالَى ثَلَاثَ

هَيْئَاتٍ لَا يَخْلُوا ابْنُ آدَمَ مِنْهَا فِي غَالِبِ أَمْرِهِ، فَكَانَتْهَا تَحْصُرُ زَمَانَهُ. وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ

مِنَ الْمُفْسِّرِينَ مِنْهُمْ الْحَسَنُ وَغَيْرُ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ "يَذْكُرُونَ اللَّهَ" إِلَى آخِرِهِ، إِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، أَيْ لَا

يُضَيِّعُونَهَا، فَفِي حَالِ الْعُدْرِ يُصَلُّونَهَا قُعُودًا أَوْ عَلَى جُنُوبِهِمْ. وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِ تَعَالَى: "فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ

^{٢٢} الطبري، تفسير الطبري، المجلد الثالث، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ٥٥٠.

فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ" (النساء: ١٠٣). وَإِذَا كَانَتِ الْآيَةُ فِي الصَّلَاةِ فَفِيهَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يُصَلِّي قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبِهِ، كَمَا ثَبَتَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: كَانَ بِي الْبُؤْسِيُّ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلَاةِ فَقَالَ: "صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ" رَوَاهُ الْأَيْمَةُ.^{٢٣} فتفسيرهما الطبري والقرطبي يوافق رأي ابن عجيبة في هذا المسألة.

وأما ابن عربي لا يساوي بآبن عجيبة لأنه يفسر قوله تعالى: "الَّذِينَ يَدْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ" بالمراقبة، حيث قال في تفسيره حين يفسر هذه الآية: "فإن شئت راقبت (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فإن شئت راقبت (أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) وكونه في السماء يقول: هل من تائب؟ هل من مستغفر؟ هل من داع؟ وإن شئت راقبت (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ) وإن كان طعامك ثريدا فراقب (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) وكيونتنا تعم حسا".

وقال الغزالي: اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال أنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالةً لِلْقَلْبِ يُشْمِرُهَا نَوْعٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَتُنْمِرُ تِلْكَ الْحَالَةَ أَعْمَالًا فِي الْجَوَارِحِ وَفِي الْقُلُوبِ. أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاتة إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه. وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو الْعِلْمُ بِأَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى الضَّمَائِرِ عَالِمٌ بِالسَّرَائِرِ رَقِيبٌ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَأَنَّ سِرَّ الْقَلْبِ فِي حَقِّهِ مَكْشُوفٌ كَمَا أَنَّ ظَاهِرَ الْبَشَرَةِ لِلخَلْقِ مَكْشُوفٌ بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ. فهذه المعرفة إذا صارت يقينا

^{٢٣}القرطبي، تفسير القرطبي، المجلد الثاني، ١٩٨.

أعنى أنها خلت عن الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون.^{٢٤}

وأما في تفسير قوله تعالى: "وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" فابن عربي رأى أن التفكير نعت خصوصية للبشرية لا يمكن للمخلوق الآخر يعرفه وأن التفكير ليس بنعت إلهي إلا بمعنى التدبير والتردد، ثم بين ابن عربي أن التفكير في الموجودات من حيث ما هي دلالات لا من حيث أعيانها ولا من حيث ما تعطى حقائقها، كما قال ابن عطاء الله: "الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها"، قال الله تعالى: فَلَا تَعْرَبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وقال أيضا: وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ. وأما ابن عجيبة لم يتكلم على هذا.

ثم بين ابن عربي كيفية التفكير أن مقام التفكير لا يعتدي النظر في الإله من كونه إلها وهذا لأنه لا يكون للتفكير حكم ولا مجال في ذات الحق، لا عقلا ولا شرعا، ولكن قد منع الشرع التفكير في ذات الله تعالى، لأننا لن نقدر ولن نستطيع ولن نطبق في ذلك التفكير، كما قال ابن عباس لقوم: لا تتفكروا في ذات الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره"،^{٢٥} وحذرا في ارتفاع المناسبة بين ذات الحق وذات الخلق، قال الله تعالى: ويحذركم الله نفسه. وأما ابن عجيبة لم يتكلم عن هذا.

^{٢٤} الغزالي، إحياء علوم الدين، المجلد الرابع، ٥٣٠.

^{٢٥} الغزالي، مختصر إحياء علوم الدين، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٣)، ٢٥٥.

ثم بين ابن عربي أن التفكير مقامه خطر، لأنه حال لا عصمة له ولا يدري فيه هل يصيب أو يخطئ، ولهذا تركوا وأنفوا غاية علماء الرسوم وأهل الإعتبار من الصالحين أن يكون التفكير حالا لهم. فإن أراد الإصابة في التفكير والحفظ عن الخطأ فليجر التفكير في كل آيات التي ذكر فيها التفكير والإعتبار ولا يتعدى إلى غيرها، وسئل الأستاذ أبو علي الدقاق: هل الذكر أتم أو التفكير؟ فقال الأستاذ أبو علي الدقاق: ما الذي يقع للشيخ منه؟ فقال الشيخ عبد الرحمن: عندي أن الذكر أتم من الفكر لأن الحق سبحانه وتعالى يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر، وما وصف به الحق سبحانه وتعالى أتم مما اختص به الخلق.^{٢٦}

والفرق بين ابن عربي وابن عجيبة أن ابن عربي رأى أن كثيرا من علماء الرسوم وأهل الإعتبار تركوا وأنفوا التفكير أن يكون حالا لهم، لأن مقامه خطر، وهذا يختلف بابن عجيبة، لأن ابن عجيبة رأى أن التفكير حالا لهم بما حكي عن الغزالي وعبد الرحمن العارف والقشيري والجنيد وابن عطاء الله، بل من أفضل العبادات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا عبادة كالتفكير" لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق، وفي الخبر: "تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة". وابن عجيبة رأى أن الذكر والتفكير من باب متعلق لا من باب متفرق، لأن أول السير إلى التفكير ذكر اللسان، حتى صار ذلك الذكر يفضي إلى الجنان، فينتقل الذكر إلى القلب، ثم إلى الروح، وهو الفكر، ثم إلى السر، وهو الشهود والعيان، وهنا يخرس اللسان، ويغيب الإنسان في أنوار العيان، ولذلك قدم الذكر على التفكير في الآية.

^{٢٦} القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ٢٢٣.

ثم نقل ابن عجيبة عن إحياء: ومن وصل إلى هذه الدرجة أي الدرجة الموحد المستغرق الهم بالواحد الصمد، لم يفتقر إلى ترتيب الأوراد واختلافها، بل ورده بعد المكتوبات ورد واحد، وهو حضور القلب مع الله في كل حال، لأنه لا ينظر في شيء إلا يرى الله فيه، وهذه الدرجة منتهى درجة الصديقين. ثم نقل ابن عجيبة عن الحكم: أن التفكير ينقسم إلى قسمين فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. ففكرة شهود وعيان هي عبادة العارفين، ولا يُحصر ثوابها في ستين ولا في سبعين، بل وقت منها يعدل ألف سنة، فأوقات هؤلاء كلها ليلة القدر. وابن عربي لم يتكلم على هذا.

أما ثمرة التفكير وتأثيره فابن عربي رأى أن ثمرة التفكير وتأثيره أن يعطي الله علما يحصل بذلك العلم الخوف والخشية من أشد عذاب الله تعالى في النار، ولهذا قال: "فقنا عذاب النار". وأما ثمرة الذكر وتأثيره عند ابن عربي وهو مشاهدة الخالق، لأن من يراقب الله في راقد أو قاعد أو قائم فقد حاز الوجود، لا يشهد سوى الله، حتى لا يزال فكره متعلق بين وجوده تعالى ووجودهم، ومن نال هذه الدرجة وهو الملوك في هذه العالم وهذا المقام من إله حكيم، كذلك ذكره ابن عربي في شعره وتفسيره عند هذه الآية، والذكر والتفكير عنده من باب متفرق لا من باب متعلق.

وأما ابن عجيبة لا يساوي رأي ابن عربي لأن ثمرة الذكر والتفكير وتأثيرهما عنده واحد لأنه من باب متعلق، فالذكر بداية باب التفكير لكيلا يغفل عن الخالق ثم نهايته أحادية ذات الله تعالى، حيث قال في تفسيره رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا "بل هو ثابت بإثباتك، مَمْحُورٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِكَ، فَالْبَاطِلُ مُحَالٌ، وكل ما سواه باطل، كما قرره الرسول عليه الصلاة والسلام".

وقال ابن عطاء الله: أباح لك أن تنظر في المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات, قال الله تعالى "قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" فبقوله: قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ فتح لك باب الأفهام, ولم يقل انظُرُوا السَّمَاوَاتِ لئلا يدل ذلك على وجود الأجرام.^{٢٧}

ثم شرح ابن عجيبة: إنما أبرز الله هذه المكونات وأظهر هذه العوالم ليعرف بها ويظهر نوره فيها, قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) (الدخان: الآية ٣٨-٣٩), وقال تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا (المؤمنون: الآية ١١٥). قال في لطائف المنن: فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها, فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها, تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها, قال: ولنا في هذا المعنى:

ما أثبت لك العوالم إلا . . . لتراها بعين من لا يراها

فارق عنها رقي من ليس يرضى . . . حالة دون أن يرى مولاها

فأباح لك أيها الإنسان أن تنظر ما ذا في السموات والأرض من النور اللطيف الذي قامت به الأشياء وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكونات تقف مع القشر وتحجب عن اللب. وقد تقدم قوله: الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة, فمن وقف مع ظاهرها كان محجوبا, ومن نفذ إلى باطنها كان عارفا محجوبا, ولأجل هذا السر قال تعالى: قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (يونس: الآية ١٠١), وما قال: قُلْ انظُرُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ, ولو قال كذلك لذلك على الأجرام وسد لك باب الأفهام, وكيف

^{٢٧} ابن عجيبة, إيقاظ الهمم في شرح الحكم, ٢٧٩.

يدلك على الأجرام وهي أغيار, والأغيار مانعة من الدخول إلى شهود الأنوار. ومثال ذلك في التقريب إذا نظرت إلى الثلجة لذلك على ظاهر جرمها, ولكن إذا نظرت إلى ما في الثلجة, لفتح لك باب الفهم إلى نظر ما في باطنها من الماء دون الوقوف مع ظاهر جرمها.^{٢٨}

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى ندب عباده إلى معرفة ذاته ودرجهم إليها شيئاً فشيئاً, فمنهم من قصر ومنهم من وصل, فدرجهم أولاً إلى توحيد الأفعال وأنه لا فاعل سواه, فقال تعالى وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ (القصص: الآية ٦٨), وقال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (هود: الآية ١٠٧), وقال تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (الصفات: الآية ٩٦), وقال تعالى في فعل غير الآدمي: مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا (هود: الآية ٥٦), وقال تعالى في شأن الطير: أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمُ (الملك: الآية ١٩).

وقال في توحيد الصفات: وإنه لا سميع ولا بصير ولاقدير ولا متكلم إلا الله, قال تعالى: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الإسراء: الآية ١) أي دون غيره فلا سمع ولا بصر إلا به سبحانه, قال تعالى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة: الآية ١٢٠) إلى غير ذلك من الآية.

وقال تعالى في توحيد الذات: وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ (الأنعام: الآية ٣), وقال تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (النور: الآية ٣٥), وقال تعالى في محو الواسطة: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (الأنفال: الآية ١٧), وقد يجمع الحق تعالى في آية واحدة توحيد الصفات ويرقى إلى

^{٢٨} ابن عجيبة, إيقاظ الهمم في شرح الحكم, ٢٧٩.

توحيد الذات كقوله تعالى: سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (فصلت: الآية ٥٣).

ثم رقامهم إلى الشهود بقوله: سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) (فصلت: الآية ٥٣-٥٤), ثم رقامهم من الغيب إلى الشهادة بقوله: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) (الملك: الآية ١٣). فتحصل أن الأشياء كلها قائمة بالله, أثبتتها ليعرف بها ثم محاها بوحدانيته كما أشار إلى قول ابن عطاء الله: الأكوان ثابتة بإثباته محووة بأحدية ذاته.^{٢٩}

وأما التسوية بين تفسيري ابن عجيبة وابن عربي في هذه الآية أنهما يساويان أن الذكر والتفكر تأثير في مشاهدة الخالق, وإن اختلفا طريقيهما.

^{٢٩} ابن عجيبة, إيقاظ الهمم في شرح الحكم, ٢٨٠-٢٨١.